

٦ - بديع الزمان الهمذاني

للدكتور عبد الوهاب عزام

ويلحق بالديوان شعره في الرسائل والمقامات وذلك في معظمه قطع قصيرة جيدة ثم شعر البديع عامة سهل جيد المعاني منقح الالفاظ يتجلى فيه تهذيب الكتاب ، اذا استئينا الشعر المرتجل وشعر الألائز ونحوه مما لا يقام له في الأدب وزن ، ولكنه لا يبلغ الدرجة العليا الا قليلا .

وبديع الزمان عند نفسه وعند الناس كاتب يقول الشعر ، ولكنه يرى أن البليغ من أجاد الصناعتين : يقول في المقامة الجاهلية : ان الجاحظ في أحد شق البلاغة يقطف . وفي الآخر يقف . والبليغ من لم يقصر نظمه عن ثمره ، ولم يذر كلامه بشعره ، فهل تروون للجاحظ شعراً رائعا ؟

نثر الهمذاني

في القرن الرابع الهجري بلغت الكتابة العربية درجة من الصناعة والتألق لم تخل بسلامتها ولم تذهب بمعانيها - تولاها كتاب قادرون صرفوها في أغراض شتى ، واختاروا من الالفاظ والاساليب الجليل المحلى ، دون غريب ولا اخلال بالمعاني . وتناولت الكتابة كثيرا من فنون الشعر ، كالمديح والهجاء والغزل والوصف : الى ما كان لها قبلا من الموضوعات ، فأتسع المجال لنوى الفكر الناقد والقلب الشاعر ، لم يقيد في النثر ما قيد الشعراء من الأوزان والقوافي والاصطلاحات . وكان كثير من الكتاب يلتزم السجع ، ومنهم من يكتفى بالازدواج ، وقليل منهم يرسل الكلام ارسالا . وفي هذا العصر نبغ أئمة الكتابة كابن العميد والصاحب والساب والمهاجر وقابوس ، والحوارزمي ، وبديع الزمان . ولم يكن بديع الزمان كعظم هؤلاء . وزيرا أو ذا منصب ، فلم تستغرق كتابته أهوال الدولة وكثرت في رسائله الموضوعات الخاصة والعامة . واستبان نواح من عصره في السياسة والأخلاق ، والآداب وغيرها

وله في الكتاب أصحاب المناصب رسالة الى أبي نصر المرزبان يقول فيها : كنت أظن الله بقاء سيدي ومولاي في قديم الزمان

اتخى للكتاب الخير ، وأسأل الله أن يدر عليهم اخلاف الرزق ، ويمد لهم أكتاف العيش ، ويوطئهم أعراف نجد ، ويوثقهم أصناف الفضل ، ويركبهم أكتاف العز ، وقساراي أن أرغب الى الله تعالى في ألا ينبلهم فوق الكفاية ، ولا يمد لهم في جبل الرعاية ، فشد ما يطفون للذمة يالونها ، والدرجة يعلونها ، وسرع ما ينظرون من عال ، بما ينظرون من حال ، ويجمعون من مال ، وتقسيم أيام الدونة ، أوقات الحشونة ، وأزمان العذوبة ، ساعات الصعوبة ، وللكتاب مزية في هذا الباب ، فيتألم في العطلة أخوان ، كما انتظم البسيط ، وفي العزلة أعوان ، كما انفرج المشط ، حتى لحظهم الجدلحة حقا . بمنشور عمالة ، أو صك جمالة ، فيعود عامر ودهم خرابا ، وينقلب شراب عهدهم سرايا ، فساكت أمورهم ، حتى اسبكت ستورهم ، ولا غلت قدورهم ، الاخلت بدورهم الخ (١)

ويجمع نثر بديع الزمان الرسائل والمقامات :

١ - الرسائل

لبديع الزمان ثلاث وثلاثون وماتت رسالة تناول فيها أغراضا كثيرة .

والرجل دراك حساس ، اذا سلط فكره الى موضوع أضاء له جوانبه كلها ، ثم وضحت أمامه طرائق البيان ، فهو مبدع عن كل معنى بطرق مختلفة من التصوير والتشيل ، يسايره القارى فيها . وهو معجب متعجب . انظر قوله في بعض السلاطين (٢) : « قد علم الشيخ أن ذلك السلطان سماه اذا نعيم لم يرج صحوه ، وبحر اذا تغير لم يشرب صفوه ، وملك اذا سخط لم ينتظر عفوه ، فليس بين رضاه والسخط عرجة ، كما ليس بين غضبه والسيف فرجة ، وليس من وراء سخطه مجاز ، كما ليس بين الحياة والموت معه حجاز ، فهو سيد يفضيه الجرم الخبي ، ولا يرضيه العسذر الجليل ، وتكفيه الجنابة وهي أرحاف ، ثم لا تشفيه العقوبة وهي أجحاف ، حتى إنه يرى الذنب وهو أضييق من ظل الرمح ، ويعمى عن العذر وهو أبين من عمود الصبح ، وهو ذو اذنين يسمع بهذه القول وهو جهتان ، ويحجب بهذه العذر وهو برهان ، وذو يدين يبسط احدهما الى السفك والسفح ، ويقبض الاخرى عن العفو والصفح ، وذو عينين يفتح احدهما الى الجرم ، ويغمض الاخرى عن الحلم ، فزحجه بين القد والقطع ، وجده بين

(١) ص ٦٦ من الرسائل

(٢) ص ٦٩ من الرسائل

الكسوة والقوت ، وما قولك في رجل يعادى الله في الفلس ، ويبيع الدين بالثمن البخس ، وفي حاكم يبرز في ظاهر أهل السم ، وباطن أصحاب السبت ، فعله الظلم البحت ، وأكله الحرام الدحت ، وما رأيتك في سوس لا يقع الا في صوف الايتام ، وجراد لا يسقط الا على الزرع الحرام ، ولص لا ينقب الا خزنة الاوقاف ، وكردى لا ينبر الا على الضيف ، وذئب لا يفترس عباد الله الا بين الركوع والسجود ، ومخرب لا ينهب مال الله الا بين اليهود والشهود ، وما زلت ابغض حال القضاة طعوا وجلبه ، حتى أبغضتهم ديناً وولته ، وكتب في كتاب لم يعجبه انشاؤه وخطه : « الكتاب وصل ، حجم هائل ، ليس وراءه طائل ، وخط مجنون ، لا يدري الف فيه من نون ، وسطور ، فيها شطور ، ديب السرطان ، على الجيطان ، ولفظ اخلاط ، لا يدركه استنباط ، ولا يفسره بقراط ، هذيان المحموم ، وهوس الملوم ، وسوداء المهموم ، وقرأت شطر كتاب لم أدر والله عماذا يعبر ، عن أمور سقيمة ، أو عن أحوال مستقيمة ، لا جرم اني ظننت خيره ، ولم أبعده غيره ، وجوزت السلامة ، ولم آمن ضدها ، وذهبت مع الظن الجميل اتفاقاً ، ثم رجعت القهقري اتفاقاً ، فسألت الله لك المزيد إن كانت سلامة والسلام » (٢)

وكتب الى أحد اصداقائه يطلب بقره :

« وقد احتيج في الدار الى بقره يحلب درهما ، فلتكن صغوفاً تجمع بين قعين في حلبه ، كما تنظم بين دلون في شربه ، وليملاً العين وصفها ، كما يملاً البد خلفها ، وليزن مشياً سعة الذرع ، كما يزين درهما سعة الضرع ، ولتكن عوان السن ، بين البكر والمسن ، ولتكن طروح الفحل ، رموح الرجل ، وليصف لوناً صفاء لبناً ، وليكن منها كفاء سمناً ، ولتكن رخصة اللحم ، جمعة الشحم ، كثيرة الطعم ، سريعة الهضم ، صافية كالجون ، فاقمة اللون ، واسعة البطن ، وطية الظهر ، مثلثة الصهوة ، فسيحة اللهوة ، لا تصيق بطنها عن العلف ، فيؤديها الى التلف ، ترد الهول ولا تخافه ، وتشرب الرقيق ولا تعافه ، واجهد أن تكون كبيرة الخلق ، لتكون في العين اهيب ، صيقة الخلق ، ليكون صوتها في الاذن اطيب ، واحذر أن تكون نطوحاً أو سلوحاً ، وياك أن تبعثها ملوحاً أو رشوحاً ، ولا تكن مطاوعة عند الحلب لا تمنع نفسها ، ولا تكثر لحسها ، وداهية في الرعي ، لا قرب سعي ، حقا على الحوض كالنعجة ، لا تأمن من البعجة ، أولة للراعي الذي يرعاها ، مجية لصوته اذا دعاها ، مهتدية الى المنزل

الميف والنطع ، ومراده بين الظهور والكمون ، وامره بين الكاف والنون ، ثم لا يعرف من العقاب ، غير ضرب الرقاب ، ولا يهتدى من التائب ، الا لازالة النعم ، ولا يعلم من التأديب ، غير اراقة الدم ، ولا يحتمل الهنة على حجم الذرة ، ولا تنشرة ، ولا يحلم عن المغفرة ، كوزن الهبوة ، ولا يفضي عن السقطة ، كجرم النقطة ، ثم ان النعم بين لفظه وقلبه ، والارض تحت يده وقدمه ، لا يلقاه الولي الا بضمه ، ولا العذر الا بدمه ، والارواح بين حبه واطلاقه ، كما الاجسام بين خله ووثاقه ، ونظرت فاذا انا بين جودين : إما أن اجود بياسي ، وإما اجود برأسي ، وبين رگوبين : إما المفاضة ، وإما الجنازة ، وبين طرفين : إما الغربية ، وإما التربة ، وبين فراقين : إما أن أفرق أروضي ، أو أفرق عرضي ، وبين راحلتين : إما ظهور الجمال ، أو اعتناق الرجال ، فاخترت السماح بالوطن ، على السماح بالبدن ، وأشدت :

إفالم يكن الا الاستة مركبا فلا رأى للبخطر الاركوبها
ويقول في رسالة كتبها الى القاضي ابى القاسم يذم احد القضاة (١)
« فولى المظالم وهو لا يعلم اسرارها ، وحمل الامانة وهو لا يعرف مقدارها ، والامانة عند الفاسق ، خفيفة المحمل على العاتق ، تشفق منها الجبال ، وتحملها الجبال ، وقد تقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم بين كتاب الله يتلى ، وحديث رسوله يروى ، وبين البينة والدعوى ، قبجه الله من حاكم لا شاهد أعدل عنده من السلة والجام ، يدل هما الى الحكم ، ولا يميزك أصدق لديه من الصفر ، ترقص على الظفر ، ولا وثيقة أحب اليه من غمزات الخصوم ، على الكيس المخترم ، ولا وكيل أوقع بوفاته من خبيثة الذيل ، وحمال الليل ، ولا كفيل أعز عليه من المتديل والطبق ، في وقى العسق والقلق ، ولا حكومة ابغض اليه من حكومة المجلس ، ولا خصومة أوحش لديه من خصومة الفللس ، ثم الويل للفقير اذا ظلم ، فبايغنيه موقف مسلحكم ، الا بالقتل من الظلم ، ولا يجيره مجلس القضاء ، الا بالنار من الرمضاء ، وأنسم لو أن اليتيم وقع في انياب الاسود ، بل الحيات السود ، لكانت سلامته منهما أحسن من سلامته اذا وقع بين غيايات هذا القاضي وأقاربه ، وما ظن القاضي يقوم يحملون الامانة على متونهم ، ويأكلون النار في بطونهم ، حتى تغلظ قصراتهم من مال اليتامى ، وتضمن أكفاهم من مال الايامى ، وما ظنك بدار عمارتها خراب الدور ، وعطلة القدور ، وخلاء البيوت ، من

بغير هاد ، ذاهبة الى المرعى بغير قياد ، ولا اظنك تجدها اللهم
الا أن يسخ القاضى بقرة ، وهو على رأى التناسخ جائز ، فاجهد
جهدك ، وأبذل ما عندك . »

وهو أ كتب ما يكون حين يعظ أو يهجو أو يسخر . وللفكاهة
في بيانه مجال واسع (١) به يقول في رسالة شفاعته : « مثل أيد
الله القاضى مثل رجل من أصحاب الجراب والخراب ، تقدم الى
القصاب ، يسأله فلذة كبد ، فسد باليسرى فاه ، وأوجع بالآخرى
فكان . فلما رجع الى مسكنه كتب اليه توقيعا ، يطلب حملا رضيعا ،
كذلك أنا وردت فلا اكرام بألم ، ولا صلة بسلام ، ولا تمهد
بقلام ، فلما وجدته لا يزال ، بسالى ، كاتبته اشفع لسواى ، وهو
موصل رقتى هذه ، وله خصم بينهما قصة لأسأله في الين ،
الإصلاح الجانيين ، والسلام »

وله من رسالة الى فقيه نيسابور في رجل اغتاب البديع ، فرد
عليه الفقيه : « فان كان لا بد من انتقام واستيفاء ، فاعينك بالله ان
تجهل أن آذان الأتذال ، في القذال ، وهى آذان لا تسمع الا من السنة
النعال الأدم ، أو ترجمة أكف الخدم ، وعلامة قهها جحوظ العينين ،
وخدر اليدين . فان تاب ، والا كررت هذا العتاب . » (٢)

وله الى قيس بن زهير : (٣) « اعوز الصوف فبعتت اليك بفر
فطقت تلزم ، وظلت تقعد في العتاب وتقوم ، وارانى ما بعتت
في القياس ، ولا خرجت عن متعارف الناس ، فالصوف نفس
الفرو ، الا أنه نسج ، والفرو نفس الصوف الا انه حديج ، فكل
فرو صوف ، وليس كل صوف فروا ، فان أنصفت وجدت الفرو
فطرة ، والصوف بدعة ، وإن نظرت رأيت الفرو صوفا وزيادة ،
فكان نعمى وسعاده ، والفرو وبر في الشتاء ونطع في الصيف ، فان
قرسك البرد فالبسه وأنت قيس ، وان غشيك المطر فاقبله
وأنت قيس . »

وبديع الزمان ليس متكلفا في بيانه ، لاجس القارى . جهده في
اختيار اللفاظ أرسياق الأساليب ، ولكنه يلتزم السجع في معظم
كتابه سنة كتاب عصره .

وقد عاب الجاحظ في المقامة الجاحظية بقلة الصنعة في كلامه بعد
أن عابه بأنه لا يحسن الشعر قال : « فهل ترون للجاحظ شعرا رائعا ؟
قلنا لا . قال : فهلوا الى كلامه فهو بعيدا الاشارات ، قليل الاستعارات ،

قريب العبارات . مفقاد المران الكلام يستعمله ، نفور من معنائه
يهمله ، فهل سمعتم له لفظه مصنوعة ، أو كلمة غير مصنوعة ؟ »

ب . — المقامات

يقول الهمداني في رسالة يعيب فيها شعر الخوارزمي : « وما
كنت لا كشف تلك الاسرار ، وأهتك تلك الاستار ، وأظهر منه
العار والعوار ، (٤) لولا ما بله ناعنه من اعتراض علينا فيما أملينا ، وتجهيز
قدح علينا فيما رونا ، من مقامات الاسكندري من قوله انا لا
نحمن سوانا ، وانا نقف عند منتهاها ، ولو أنصف هذا الفاضل
لراض . طبعه على خمس مقامات ، أو عشر مفتريات ، ثم عرضها
على الاسماع والضائر ، وأهداها الى الابصار والبصائر ، فان كانت
تقبلها ولا تزجها ، أو تاخذها ولا تمجها ، كان يعترض علينا
بالقدح ، وعلى املائنا بالجرح ، أو يقصر سعيه ، ويتداركه وهنه
فيعلم أن من أملى من مقامات الكدية اربعمائة مقامة لا مناسبة
بين المقامتين ، لا لفظا ولا معنى ، وهو لا يقدر منها على عشر حقيق
بكشف عيوبه والسلام ،

ومثل ذلك في رسالة الى أبي المظفر بن أبي الحسن البغوي (٥)
ويقول الثعالبي : فواقها (يعنى نيسابور) في سنة اثنين
وثمانين وثلاثمائة ونشر بها بزه ، وأظهر طرزه ، وأملى اربعمائة
مقامه نحلها أبا الفتح الاسكندري في الكدية وغيرها ،
وكذلك يقول الحصرى في زهر الآداب انها اربعمائة مقامة .
والذى بايدنا من هذه المقامات اثنتان وخمسون . قبل
ضاعت المقامات الا هذا المقدار ، أرجح أنه أملى في الكدية اربعين
وحرفت الكلمة الى اربعمائة ، وتتابع عليها التناسخ . وذلك أنه
يعد أن يضع هذا العدد من المقامات على كلف الناس بها ،
ولأنه في رواية الحصرى عارض بالمقامات الاحاديث الاربعين
لابن دريد . ثم هو يقول إنه أملى هذه المقامات في الكدية . ونحن
اذا عددنا المقامات ، التي فيها كدية صريحة وعدناها خمسا وثلاثين .
وجائز أن يكون البديع قد اعتبر تحسا أخرى من مقامات الكدية ،
فان صح هذا فقد أملى اربعين في نيسابور . ثم أملى الاخرى بعد
كالمقامات الست التي فيها مدح خلف بن احمد .

عبد الوهاب عزام

يتبع